مجانين قريتنا

جابر بن محمّد العمري ❖

اعتاد ابني الوحيد فهمي، وهو ابنُ أربع سنين، ألاّ ينامَ إلاّ مصغيًا إلى قصّةٍ أقصُّها عليه، ومسائلاً إيّايَ بعضَ الأسئلة عمّا يستمع إليه. ومرّةً سألني عن المجانين الذين كانوا يخيفوننا أيّام صبانا. اتّقدت الفكرةُ في ذهني، وأنارت ذاكرتي بنورٍ جديد، فتجلّت فيها الأيّامُ البعيدة المنسيّة، حتّى أخذ كلُّ واحدٍ من المجانين القَرَويّين يلوحون أمام عينيَّ بمظاهرهم التي كانت تخيفنا نحن الصغار نهارًا وتؤرّقنا ليلاً وتُضْحكنا كبارًا. لِمَ يشتاقُ الصغار إلى رؤيةِ المجانين والاستماع إلى قصصهم رغم خوفهم منهم؟ لعلّ المجانين في نظرهم لمّا يبلغوا سنّ التمييز، فهم يرونْهم صغارًا سواء بسواء؛ لكنّهم يخافونهم لأنّهم لم يدركوا حقيقة ما في أنفسهم، وذلك لكِبَر أجسامهم وغرابةِ أثوابهم وشعوثةِ أشعارهم ولحاهم.

أصغى فهمي إلى كلامي مرهفًا أذنيْه.

ـ نعم ، كان في قريتنا مجانين كثيرون جعلوا مرورَنا في شوارعها تجربةً راعبة. واللهُ أدرى بمدى رعبي عند ذهابي إلى المدرسة الصباحيّة والمحلاّت في الشوارع الموحشة. واللهِ لا أدري كيف اعترضوا سبيلي كلّما خفت بلقائهم. إنّ أعجب الأمور هو أنّ لكلّ واحدٍ منهم شخصيّته الفذّة ومعاملاته الخاصّة التي تميّزه من الآخرين.

فأمّا المجنون الأوّل فرجلٌ نحيف لا يلبس إلاّ إزارًا قذرًا ورداءً يبقى دائمًا على عاتقه. يأتي من قرية غير بعيدة، وكان لا ينظر إلى وجوه الناس، بل يمدّ نظره دائمًا إلى الأرض، ولا يؤذي الآخرين إلا إذا أثاروا غضبه.

ـ وكيف يُثار غضبه؟ تساءل فهمي

ـ أن يُرسَم خطٌّ عريضٌ على الشارع.

ـ وماذا يصنع؟

ـ يَرمي بالأحجار مَن يرسم الخطّ.

ـ وكيف يضرّه ذلك الخطّ؟

ـ يحسبُه جدارًا ـ فيما أظنّ ـ يمنعه من العبور.

ـ وكيف يتجاوزه؟

ـ يتجاوزه في الظلام، إذْ لا يراهُ حينذاك.

ـ هل رسمته يا أبي يومًا؟

ـ أبدًا لا. نحن الصغار كنّا نشفق عليه. الكبار هُمُ الذين اتخذوه لعبًا ولهوًا. وفي بعض الأحيان، أيّامَ اشتداد جنونه، كان يثور غضبُه إذا مشى أحدٌ أمامه في الشارع عرضًا. تجوّل هذا المجنون الغريب في قريتنا سبعة أعوام أو ثمانية، ثمّ غاب بعد مرور سنوات قليلة. قيل إنّه مات، وجاد بروحه لتهيم في عالم أوسع ممّا كانت تهيم فيه.

ـ هل كان هناك مجنون آخر يا أبي؟

ـ بالتأكيد يا بُنيّ. كان يمشي في شوارعنا مجنونٌ ثانٍ، يشدّ رأسه بمنديل. حكى أترابُنا في المدرسة أنه قُتل بعضُ أعضاء أسرته لسببٍ ما، فقبضت الشرطةُ عليه، وأصدرت المحكمةُ عليه حكمَ اعتقال يطول إلى اثنتيْ عشرة سنة، ثمّ أطلِق من المعتقل رجلاً مخبولاً لا يكلّم أحدًا. وكنّا نحن الأطفال نلاحظ أصابعَ يديه التي تبقى مشدودة دائمًا. وكان أهلُ الذكر يقولون إنّه يضمر في قبضتيه شَفرتيْن حادّتين ليهاجم بهما الأطفالَ لو سنحتْ له الفرصة. ولذا خفنا منه أكثر ممّا نخاف من المجنون الأوّل. وكان يدخل المسجد فلا يتوضّأ بل يخوض مباشرةً في الصلاة. وكانت صلاته أيضًا صلاةً خاصّةً به؛ فإذا سجد لم يفرغْ إلاّ بعد عشرين سجدةً على الأقلّ في كلّ ركعة. وكان

❖ ـ أستاذ مساعد في قسم اللغة العربيّة بكلية مهاراجس الحكوميّة التابعة لجامعة مهاتماغاندي بولاية كيرالا.

يغيب عن قريتنا، فلا نراه إلا بعد ثلاثة أشهر أو أربعة.

ـ وماذا جرى له أخيرًا يا أبي؟

ـ لا نذكر يا بُنيّ أين هلك وكيف هلك.

ـ هل كان هناك مجنون ثالث؟

ـ أجل يا بنيّ. كان مجنون ثالث، سمين الجسم، عظيم البطن، كثير الأكل. أكبرُ ميزته القُمْصانُ والأزرُ التي يلبسها واحدًا فوق الآخر. كنّا نراه متجوّلاً في قريتنا والقرى المتجاورة. واعتاد أن يحضر كلّ وليمة، فلا يقتعد إلاّ بجوار الفرن، ولا يترك مقعدَه إلا إذا أكل ملءَ سبعة أمعاء. ولم نرَ مرّةً واحدةً أصحابَ الولائم يردّونه عنها. وكنّا نحن الصغار نتحدّث في أمره، فيقول بعضنا إنّه لم يغتسلْ بعدما جُنّ؛ ولذا يلبس الأثوابَ واحدًا فوق الآخر: كلّما اتّسخ ثوبٌ لبس ثوبًا عليه، من دون أن يخلع الثوب القذر. كان يمشي في طرقات القرية ببطنه الكبير وملابسه القذرة، يشمّ الولائم. حتى أصابه سوءٌ في جسمه، فصار على مرّ الأعوام صغير البطن نحيف الجسم، فلا يبقى عليه من خاصّيّته إلاّ الملابس القذرة المتراكمة. وبعد أشهر قليلة قيل إنّه انتقل إلى جوار ربّه، وليس عليه إلاّ الأقمشة البيضاء التي كُفّن بها.

ـ أحبُّ هذا المجنونَ أكثرَ من السابقَين، قال فهمي.

ـ لِمَ؟

ـ ليس فيه شيء يروِّعنا إلا أكْلتُه تلك. أكان هناك مجنونٌ آخر يا أبي؟

ـ ألم يدركك النوم؟

ـ لا، زال نومي. احكِ يا أبي، وإلاّ جُننتُ.

ـ كانت مجنونة تأتي من قرية بعيدة. عمياء في الخمسينات من عمرها. تقتعد رواقَ بعضِ المحلاّت، وتأخذ تتكلّم عن أسرتها في صوتٍ رفيع، فتسرد قصّتها حينًا، وتسبّ وتلعن أقاربَها حينًا آخر. ما رأيناها مرّةً واحدةً ساكتةً عن السرد والسبّ واللعن. لا ننسى ذلك المساء الذي اضطرم فيه جنونُها، فنزلتْ عن الرواقِ إلى وسط الشارع، واعترضتْ سبيلَ المارّة والمراكب، مضطجعةً فيه. وكانت تصيح بلسان بذيء، وهي تسبّ أقاربَها وكلَّ من يحاول أن ينحّيها إلى جانب الشارع. كان يومًا مشهودًا للأطفال، وتَحيّرْنا لسمع ألفاظٍ ماجنةٍ فاحشة، وتحيّرَ كبارُ الرجال وبذلوا قصارى جهودِهم لإزاحتها عن الشارع، ولكنهم فشلوا. وكان الشارع يزدحم بالمراكب والمشاهدين قليلاً قليلاً، فاتّصلوا بالشرطة، فاعتقلتها، وما رأيناها بعد.

تأمّلتُ فهمي فإذا هو ينظر إلى وجهي بعينين شاخصتين.

ـ أُحبُّ رجالَ المجانينِ لا الإناثَ، يا أبي.

قالها متثائبًا، ثم استغرق في النوم، فيما كنتُ أحاول أن أذكرَ قصص مجانين آخرين.

الهند